رد على
يوسف إدريس

جلس الأستاذ رشاد كامل المحرر بصباح الخير إلى الدكتور يوسف إدريس يحدثه عن كتابى «يوسف إدريس والفن القصصى» وقد ورد فى سياق الحديث ما يمسنى شخصيا والكتاب أيضا . .

وسوف أتلقى تلك الشتائم. وذلك السباب ، كما يتلقاه ، الكرام فى كل مكان بالتسامح والصفح الجميل .

ولكنى ألفت نظر يوسف إدريس إلى أنى خريج متخصص . تخرجت فى كلية الآداب لا كلية الطب وأن دراستى للنقد ، ليست مجرد هواية فحسب ، فقد درست على أساتذة متخصصين أحدهم الدكتور شكرى محمد عياد الذى هاجمه يوسف إدريس فى حديثين له اعتقادا منه أنه كان مشرفا على الرسالة التى تناولت أدبه بالدراسة فأخذ يزعم أننى أردت أرضاءه بالقدح فيه لأنه كاتب قصة قصيرة يحسده على ما حقق من شهرة وهو لا يعلم أن شكرى عياد رجل على خلق ولا يمكن أن يهبط إلى هذا المستوى أبدا لا هو ولا تلاميذه . وبالتالى . لا يقبل ولا يسمح لنفسه أن يهاجم كاتبا مثل يوسف إدريس لمجرد أنه يكتب قصة قصيرة كما يكتب وأنه ينفس عليه المجد الذى حققه. . فالرجل برىء من هذه التهمة ولم يكن مشرفا على الرسالة التى تقدمت بها لنيل درجة الدكتوراه وإنما أشرف عليها الدكتور مصطفى مندور أما عضوا اللجنة فهما الدكتور إبراهيم عبد الرحمن محمد والدكتور رجاء عيد . والجميع لم تصبهم حرفة الأدب !

وإنى أسألك وأنا واثق من أن الجواب سيكون بالنفى .. هل قرأت كتابى الذى أرسلت إليك منه نسختين ، كنت أظن أنك سوف تتواضع فتقرأهما ، أم أنك لا تقرأ إلا لكبار النقاد . وهل يرضى كاتب مثلك أن يجلس مسترخيا لكى يقرأ له إنسان آخر عبارات مقتطعة من سياقها ، فينطلق من فيك الكريم السباب بلا حساب ؟ ألم يكن يجدر بك أن تتحرى صحة ما يلقى إليك من أقوال؟ . أين الموضوعية إذن واين شرف الكلمة والاحساس بالمسئولية وأنت أديب يفترض فيك التحلى بهذه الخصال ؟!

لقد ذكرت أنت أننى قلت عن الحرام أنها لا رواية ، وهو ما لم أقله ولكنى عندما قلت أنها ليس بها بطل ولا بطلة بالصورة التقليدية ، لم أنته إلى القول بسقوطها فنيا بل أشدت بها وكشفت عن الأسلوب الفنى الذى اتبعته فى تأليفها وقد وقعت أنت فى التناقض وأنت تريد أن تدافع عن الرواية ظنا منك أننى أهاجمها فهاجمتنى لأنى قلت أنها ليس لها بطل . ثم عدت فقلت أن الأدب العالمى ليس لرواياته أبطال فى الآونة الأخيرة ، فهل أنت توافقنى على ما أقول أم تعارضنى . والحق أنّ مصدر هذا التناقض من جانبك هو أنك لم تقرأ ما كتبته عن الرواية ولو قرأته لكان لك رأى آخر .

وبعد .. «فزقاق المدق» لنجيب محفوظ ليس لها بطل وهى رواية جيدة وكذلك «الثلاثية» أيضا ليس لها بطل ، وقد قيل هذا عنها على لسان نقاد لهم وزنهم ، مثل الدكتور على الراعى وقد سمع بهذا نجيب محفوظ ولم يغضب لأنه يعلم ذلك ولأنه يعلم أيضا أن تلك الأحكام النقدية تصدر فى سياق متكامل يكشف عن الجوانب الفنية للعمل الروائى ككل .

أن أشكال الحبكة كثيرة ، وقد نبه اليها النقاد فى دراسات متنوعة كثيرة يمكنك الاطلاع عليها ، وهذا ما يعرفه المتخصصون وهم أقدر من غيرهم على الخوض فى هذه المسائل .

أما عن موقفك من الشيوعية أو الماركسية وهو أمر لا يعنينى شخصيا ولا يسبب لى متاعب خاصة أو عامة . فأحب أن أوضح شيئا مهما يجب عليك أن تعرفه وهو إنى لا أتدخل فى معتقدات الأشخاص ولا مذاهبهم ولا يحق لى ذلك لا أنا ولا أحد غيرى ، وليس من حق أحد أن يحجر على حرية الآخر تحت أى اسم وأى شعار ، ولكنى تعرضت لهذا الموضوع لأنه كان موضوعا مطروقا خاض فيه بعض النقاد الذين نقل بعضهم — كما يقول — عن لسانك شخصيا . وكنت اريد أن أستعين بذلك على فهم أدبك ، ولست تنكر أن معرفة حياة الكاتب قد تلقى بعض الضوء على أدبه دون أن يصبح أدبه مجرد وثيقة اجتماعية أو نفسية . ولكن الأهم من هذا كله أنى نفيت ذلك عنك بصريح العبارة فقلت .

«يبدو لى أن تحديد موقف الكاتب العقائدى أمر حيوى للغاية فى الحديث عن تطوره الفنى .. فعقيدة المؤلف تتدخل فى صوغ شخصياته وحبكتها فقد يركز الكاتب تركيزا

عظيما على أثر العامل الاقتصادى أو أهميته فى الحياة وقد يهتم بالعمق والاخلاص فى العلاقات الإنسانية فقد يرى أحد الكتاب فى الإرهابى شريرا مخربا فى حين يراه كاتب آخر وطنيا وشهيدا . والكاتب العظيم هو الذى يهتم أكثر من غيره بالدوافع البشرية والغموض المأساوى للوضع الأخلاقى للإنسان . فالرواية التى لا تملك إلا المضمون الايديولوجى لا يمكن أن تكون رواية عظيمة إلا بصعوبة» (ص ١٢٩) .

ولقد ذكر إدريس أن أحد الأعاجم قال إنه الخامس بين كتاب القصة القصيرة فى العالم ، وأنه ليسعدنى غاية السعادة أن يكون ذلك الكلام صحيحا ، فلست كاتب قصة قصيرة ولست حاقدا عليه ، بل إنى لواثق أنّ كل النقاد وأساتذة الجامعة فى أقسام اللغة العربية الذين يزعم أنهم يناصبونه العداء ، ليثلج صدورهم أن يكون ترتيبه الأول . لا الخامس وأن يكون قبل «تشيكوف» المسكين الذى ساءه أننى قرنته به رفعا من قدره وتكريما له ، ولو قرأ إدريس ما كتبته فى هذا الشأن لما زعم أننى قلت عنه أنه سرق قصصه جميعا من تشيكوف وكافكا .

والحق أنى لم أهتم بحياتك الشخصية إلا بقدر ، ولم أر أنها تهمنى كثيرا ، فى ذاتها وإن كنت أعرف عنها الكثير من التفاصيل من بعض أقاربك وأبناء القرية التى ولدت فيها . ولم أشغل نفسى بالحديث عن حبك ، ومن ثم فإنى مندهش لقولك أننى ذكرت أنك تحب فلانة أو علانة من النساء لأن الكتاب «المظلوم» الذى أغضبك لم يذكر شيئا من ذلك على الاطلاق ، وأتحداك أن تأتى منه بشىء من هذا . بل وأؤكد لك أنك تخلط بين ما قلت فى هذا الكتاب وبين ما قاله آخرون فى كتب لهم .

وأنى لأذكر بغاية الدهشة أن ما وجهه إلى يوسف إدريس من شتائم ليس له سابقة فى حياتنا الأدبية ، على كثرة ما شهد الحقل الأدبى فى مصر من معارك نقدية كان هو من معاصريها .

وأخيرا فحرصا منى على مسئولية الكلمة وترفعا عن الاسفاف فى المناقشات العملية الجادة التى ينبغى أن تقرع الحجة فيها بالحجة وحرصا على مكانة أستاذ الجامعة ، فلن أهبط إلى مستوى الرد على تلك الشتائم التى وجهها إلى يوسف إدريس [1].

---

(١) نشرت بمجلة صباح الخير القاهريّة . العدد ١٣٣٨ . أغسطس ١٩٨١ ص ٢٤ .